موت أمه

ورد فى بعض النسخ لديوان أبى فراس ، قصيدة رثى بها الشاعر أمه ، وهو فى الأسر ، بينما أغفلتها بعض النسخ الأخرى ، ووجود هذه القصيدة الرثائية يضعنا فى حيرة من الأمر ، فهى تثبت وفاتها فى حياة ابنها الأسير ، بينما يقول ابن خلكان[1] : « وكان أبو فراس خال أبى المعالى ، وقلعت أمه سخينة عينها لما بلغها وفاته ، وقيل إنها لطمت وجهها ، فقلعت عينها » ، مما يدل على أن هذه الأم عاشت بعد موت ولدها .

والذى أرجحه أن هذه القصيدة لأبى فراس ، وإذا نحن أعدنا ضمير « أمه » فى قول ابن خلكان على أبى المعالى كانت سخينة أمه وأخت أبى فراس ، وقد أوضح مرجع الضمير هذا صلاح الدين الصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات ، فإنه وضع المظهر موضع المضمر ، فقال : « فلما بلغت وفاته أم أبى المعالى لطمت وجهها ، وقلعت عينها[2] » ، ومما يؤيد ذلك أنه لم يتحدث إلى أمه بعد أسره .

بدأ أبو فراس قصيدته ، ينادى أمه على البعد ، ويدعو لقبرها بسقيا الغيث ، متحدثاً عن تلك الغصّة التى لزمتها فى حياتها ، وهى غصّة أسره ، باكيا على أن يأتى ذلك اليوم ، الذى يظفر فيه بحرّيته ، ولا يجد تلك التى تتلهّف على تلك الحرية ؛ فقال :

أيا أم الأسير ، سقاك غيث ... بكره منك مالقى الأسير
أيا أم الأسير ، سقاك غيث ... إلى من بالفدا يأتى البشير

ومضى حزينا على فقدان تلك الدعوات الصالحة التى كانت تصحبه أينما سار ، وعلى موتها وحيدة قد غاب عنها هذا الذى كانت تحن إلى لقياه ، ولعله

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٨ .
(٢) ديوان أبى فراس ص ٢١٦ .

كان يعزى نفسه ، بأن تقواها جعلت الملائكة الأطهار يحفون بها ، وهى تسلم الروح ، قال :

إذا ابنك سار فى بر وبحر فمن يدعوله ؟ أو يستجير ؟
حرام أن يبيت قرير عين ولؤم أن يلمّ به السرور
وقد ذقت المنايا والرزايا ولا ولد لديك ، ولا عشير
وغاب حبيب قلبك عن مكان ملائكة السماء به حضور

وأخذ يتحدث عن تقواها ، و برها ، وختم قصيدته بتلك المناجاة الحزينة :

أيا أماه ، كم بشرى بقربى أتتك ، ودونها الأجل القصير
إلى من أشتكى ؟ ولمن أناجى ؟ إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأى دعاء داعيـــة أوق ؟ بأى ضـــياء وجه أستنير ؟
نسلى عنك أنا عن قليل إلى ما صرت فى الأخرى نصير

وكل أولئك إحساسات صادقة ، وتعبير صاف عن عواطف قوية متمكنة : فكم كانت أمه تتلهف على لقائه ، و يبشرها المبشرون بقربه ، وهى تترقب فى شوق ذلك اليوم الذى حال بينه و بينها الأجل ، ثم يسأل فى يأس ، بعد فقدها ، عن هذا القلب الذى يشكو إليه بثه ، ويناجيه بآماله وآلامه ، إذا ضاق صدره بما فيه ، وعن هذا الإخلاص الذى كان يحيط خطاه بالدعوات الصالحة ، وعن هذا الرأى السديد الذى كان ينير له طريقه فى الحياة ، فيجد فى ألم ممض أن كل شىء قد مضى ، ولا يخفف عنه لوعته ، إلا علمه بأنه صائر إلى حيث صارت أمه الحبيبة .

تشـــــيعه

اتصل الحمدانيون بخلفاء بنى العباس اتصال صداقة وود حينا ، واتصال عداء ونفار أحياناً ، مع الاعتراف لهم بإسرة المؤمنين ، وكثيراً ما حاربوا إلى جانبهم يريدون أن يستخلصوا ملك العباسيين من أيدى الفرس والترك ، ولقد ساءهم ولا ريب أن يستبد هؤلاء الدخلاء بأمر العرب ، وآلمهم أن يصبح الخلفاء لعبة فى أيدى هؤلاء المتغلبين ، وقد افتخر أبو فراس فى رائيته بأن سيف الدولة وأخاه ناصر الدولة ، قد حاربا فى صف أمير المؤمنين ، ونصراه ، وأجاراه ، حين عز عليه الناصر والمجير ، فقال :

ففينـا لدين الله عز ومنعة وفينا لدين الله «سيف» و «ناصر»
هما ، وأمير المؤمنين مشرد ، أجاراه ، لما لم يجد من يجاور
ورداه ، حتى ملـكاه سريره بعشرين ألفا ، بينها الموت سـافر

ذلك كان مذهبهم السياسى فى علاقتهم بالأسرة الحاكمة فى بغداد ، أما فى باطن أمرهم فقد كانوا شيعة ، يحنون إلى الإمام على ، ويضمرون الإجلال لأبنائه ، يقول الدكتور أحمد أمين بك [1] : « والحمدانيون يغلب عليهم التشيع ، فمن آثارهم التى وصلت إلينا درهم لناصر الدولة الحمدانى ، على أحد وجهيه : لا إله إلا الله ، المطيع لله ، ناصر الدولة ، وعلى الآخر : محمد رسول الله ، على ولى الله .

ورووا أن سيف الدولة زوج ابنته ست الناس ، لأبى تغلب الحمدانى ، وضرب لهذا الحادث ، دنانير ، على أحد وجهيها : محمد رسول الله ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فاطمة الزهراء ، الحسن والحسين ، جبريل . وعلى الآخر : أمير المؤمنين المطيع لله ، الآميران الفاضلان : ناصر الدولة وسيف الدولة ،

---

(١) ظهر الإسلام جـ ١ ص ٧٤ .

الأميران أبو تغلب وأبو المكارم » . اهـ

فكان الحمدانيون شيعيين فيما بينهم و بين الله ؛ عباء بين فيما بينهم و بين الناس ، وكان أبو فراس من أشد الحمدانيين تعصبا للإمام على وأبنائه ، وهو يتخذهم وسيلة يوم العرض على الله ، و يرجو النجاة بهم ، وله فى ذلك مقطوعة صغيرة تنتهى بكلمة علىّ ، إذ قال :

لست أرجو النجاة من كل ما أخشاه إلا بأحمد وعلى
و ببنت الرسول فاطمة الطهر ، وسبطيه ، والإمام على
والتقى النقى باقر علم الله فينا : محمد بن على
وأبى جعفر سمى رسول الله ، ثم ابنه الذكى على
وابنه العسكرى ، والقائم المظهر حقى محمد وعلى
فبهم أرتجى بلوغ الأمانى يوم عرضى على الإله العلى

وواتته الظروف للمجاهرة برأيه فى حق بنى علىّ أن يكونوا خلفاء الناس وولاتهم ، وفى التنديد ببنى العباس ، وحزنه على ما أصاب الخلافة على أيديهم من الضعة والانحطاط — واتته هذه الظروف يوم أنشأ محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمى قصيدة يفتخر بها على الطالبيين ، وينتقص أبناء على ، بدأها بقوله :

بنى على ، دعوا مقالتكم لا ينقص الدر وضع من وضعه

فنظم أبو فراس قصيدة رائعة طويلة يرد بها عليه ، بدأها بأنة أرسلها حزنا على ما أصاب الدين من الضياع ، لأن حق آل رسول الله أصبح موضعاً للارتياب .

الدين مختزم ، والحق مهتضم وفىء آل رسول الله مقتسم

و إن ثورته فى تلك القصيدة الجامحة ، تدل عليها هذه الأبيات التى تنبئنا عما قد يكون أبو فراس أضمره : من نيل حق العلويين ، بالتدبير وحسن الإعداد وتهيئة الوسائل فى صمت وخفاء :

إنى أبيت قليل النوم ، أرقنى قلب تصارع فيه الهم والهمم

يصان مهرى لأمر لا أبوح به والدرع والرمح والصمصامة الخذم
وفتية قلبهم قلب إذا ركبوا يوما ، ورأيهم رأى إذا عزموا

ويستصرخ أبوفراس من حوله من الناس ، و يطلب منهم الانتقام لدين الله والانتصار لبنى على المشردين فى ديارهم ، المظلومين فى أرضهم ، فى حين أن أمر الملك فى الدولة العباسية يدبره الخدم ، وتصرفه المرأة ، وقد رأينا صورة لذلك فيما رسمناه لهذا العصر:

يا للرجال ! أما لله منتصر من الطغاة ؟ أما للدين منتقم ؟
بنو على رعايا فى ديارهم والأمر تملكه النسوان والخدم

ثم يتجه إلى بنى العباس يندد بطغيانهم ، و يعجب كيف يستطيعون الفخر على بنى على ، وهم لا يقار بونهم فى نسب ، ولا يدانونهم فى شرف :

لا يطغين بنى العباس ملكهمو بنو على مواليهم ، و إن رغموا
أتفخرون عليهم ، لا أبالكمو حتى كأن رسول الله جدكم
وما توازن يوما بينكم شرف ولا تساوت بكم فى موطن قدم
ولا لكم ، مثلهم ، فى المجد ، متصل ولا لجدكم معشار جدهم
ولا لعرقكم من عرقهم شبه ولا « نفيلتكم » من أمهم أمم

ثم عرض أبو فراس بعد ذلك للخلافة فى منشئها ، وهو لا يذهب إلى أنها شورى تنال بطريق الانتخاب ، بل صاحبها الجدير بها ، هو على بن أبى طالب ، عهد بها إليه النبى يوم الغدير ، و إن الناس ما كانوا يجهلون هذا العهد ، وما كانوا ينكرون أنه أولى الناس بها ، ولكنهم أخفوا وجه الحق وستروه ، و يعتقد أبو فراس أن من سبق عليا من الخلفاء نال الخلافة ولم يكن لها بأهل :

حتى إذا أصبحت فى غير صاحبها باتت تنازعها الذؤبان والرخم
وصيرت بينهم شورى ، كأنهمو لا يعلمون ولاة الحق أيهم
تالله ما جهل الإنسان موضعها لكنهم ستروا وجه الذى علموا

والعجب لبنى العباس أن يدعوا الخلافة إرثالهم ، وليس لهم فيها قدم ثابتة ، وما كان الناس يفكرون فيهم ، حين فكروا فى أمر الخلافة ، ولم يحكموا فيها ولم يستشاروا ، ولم يرهم أبو بكر ولا عمر أهلا لحلها :

ثم ادعاها بنو العباس إرثهم ... وما لهم قَدَم فيهـا ولا قِدم
لا يذكرون إذا ما عصبة ذكرت ... ولا يحكم فى أمر لهم حكم
ولا رآهم أبو بكر وصاحبه ... أهلا لما طلبوا منها وما زعموا

و يأخذ أبو فراس بعد ذلك فى موازنة بين صنيع على فى بنى العباس ، وكيف ولاهم الولايات هنا وهناك ، و بين ماجوزى به بنوعلى ، على يد بنى العباس : من القتل والظلم والتشريد ، ويختم تعداد آثامهم فى بنى على بقوله :

ما نال منهم بنو حرب ، وإن عظمت ... تلك الجرائر ، إلا دون نيلكم
كم غدرة لكم فى الدين واضحة ... وكم دم لرسول الله عندكم
أأنتم آله فيما ترون ، وفى ... أظفاركم من بنيه الطاهرين دم

ويمضى أبو فراس مقرعا بنى العباس ، منددا بغدرهم فى لهجة قوية عنيفة ، حتى إذا انتهى من ذلك ، مضى يتهكم ببنى العباس أنهم يدعون الخلافة ويسمون خلفاء ، فى حين أن أمر الخلافة الحقيقى إنما هو بأيدى العجم ، فأى فخر لهم ، وغيرهم هو الآمر المحتكم ؟ !

أبلغ لديك بنى العباس مألكة ... لا يدعوا ملكها ، أملاكها العجم
أى المفاخر أمست فى منابركم ... وغيركم آمر فيهن محتكم
وهل يزيدكم من مفخر علم ... وفى الخلاف عليكم يخفق العلم

ولا يقف أبو فراس عند هذا الحد ، ولكن يندد بما وصل إليه بنو العباس : من الانغماس فى الترف ، وتحليل ما حرم الله ، ويوازن بينهم فى ذلك و بين بنى على ، المنصرفين إلى الزهد والورع والتفقه :

خلوا الفخار لعلامين ، إن سئلوا ... يوم السؤال ، وعمالين إن علموا

لا يغضبون لغير الله ، إن غضبوا ولا يضيمون حكم الله ، إن حكموا
تبدو التلاوة من أبياتهم أبدا وفى بيوتكم الأوتار والنغم
منكم « علية »[1] أم منهم ؟ وكان لكم شيخ المغنين « إبراهيم » أم لهم ؟!
ما فى ديارهم للخمر معتصر ولا بيوتهم للسوء معتصم
ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم ولا يرى لهم قرد ، له حشم

ويختم هذه القصيدة بقوله :

صلى الإله عليهم ، أينما ذكروا لأنهم للورى كهف ، ومعتصم

فأبو فراس شيعى ، يتعصب لبنى على ، ويحتج لهم ، ويمقت بنى العباس ، ويراهم غير أهل لملك ولا خلافة ، وقد أجاد الإجادة كلها فى توضيح مذهبه والانتصار له .

---

(١) هى علية بنت المهدى وأخت الرشيد مغنية مشهورة وإبراهيم بن المهدى مغن مشهور .

خاتمة المطاف

خرج أبو فراس من الأسر ، فى شوال ، سنة خمس وخمسين وثلاثمائة ، وكأنه خرج ليودع ابن عمه الأمير سيف الدولة ، فإنه لم تنقض بضعة أشهر على هذا الخروج ، حتى وافت المنية أمير حلب ، فى صفر ، سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، وارتقى العرش من بعده ، ابنه أبو المعالى سعد الدولة ، وكان فى الخامسة عشرة من عمره .

كان سعد الدولة ابن أخت أبى فراس ، وكانت صلته بخاله صلة صالحة قوية ، دفعت أبا فراس وهو فى الأسر ، أن يرسل إليه وإلى أخيه أبى المكارم ، يسألهما أن يحثا أباهما على فدائه ، ويخاطبهما خطاب التجلة والاحترام ، فيقول :

يا سيدى ، أراكما لا تذكران أخاكما
ما كان بالفعل الجميل بمثله أولاكما
فخذا فداى ، جعلت من ريب الزمان فداكما

ولما مات أبو المكارم حزن عليه أبو فراس ، ورثاه ، وعزى عنه أباه سيف الدولة ، فلما ارتقى سعد الدولة عرش حلب ، وجدنا إلى جانبه قرعويه غلام أبيه ، وهنا يحق لنا أن نتساءل : لماذا لم نجد أبا فراس بجانب ابن أخته يشد أزره ، ويقوى عضده ؟ ولنا أن نجيب بأن دسائس قرعويه هى التى عملت على البعد بين سعد الدولة وخاله أبى فراس ، فإن قرعويه ، منذ وفاة سيده ، كان يعمل على أن يستبد بالأمر ، دون ابن مولاه ، فأراد أن يوغر صدره على خاله ، ليستطيع أن ينفرد به ، ويستأثر بالسلطان ، وما كان قرعويه بمستطيع أن يفعل ذلك ، وأبو فراس معه فى حلب .

نحن نرجح إذاً ، أن النفرة التى حدثت بين أبى المعالى وخاله ، بدأها

أبو المعالى تحت تأثير قرعويه ، الذى انتهت دسائسه باستيلائه على حلب ، وإخراج أبى المعالى بن سيف الدولة منها ، سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، كما يحدثنا التاريخ .

رأينا أبا فراس بعد وفاة سيف الدولة ، يقيم فى حمص ، وظل نحو عام ، وهو يشاهد ابن أخته ، وملك أسرته ، يستبد بهما رجل غريب ، لا حسب له ولا نسب ، فأراد أن يقتطع لنفسه جزءا من هذا الملك يستقل به ، ولا يكون تابعاً لسعد الدولة ، الألعوبة فى يد هذا المتغلب .

أعلن أبو فراس الثورة ، وأراد أن يستقل بحمص وما حولها ، وهنا نلحظ أن أبا فراس لم يهاجم سعد الدولة فى عاصمة ملكه ، ولعله أراد اقتطاع جزء من الملك فحسب ، من غير أن يجول بفكره أخذ الملك كله ، أو لعله أراد أن يجعل هذا الجزء ، بعد أن يستأثر به ، قاعدة يهاجم بها ماحوله .

خرج أبو المعالى ومعه قرعويه ، لإخماد ثورة أبى فراس و إخضاعه ، « فانحاز أبو فراس إلى صدد ، وهى قرية فى طرف البرية ، عند حمص ، فجمع أبو المعالى الأعراب من بنى كلاب وغيرهم ، وسيرهم فى طلبه مع قرعويه ، فأدركه بصدد[1] » . وهنا تختلف الروايات فى قتله ، فابن خالويه يقول : إنه ضرب ضربات مات منها ، فى الطريق . وابن الأثير يروى أن قرعويه قال لغلام له : اقتله ، فقتله ، وأخذ رأسه ، وتركت جثته فى البرية ، حتى دفنها بعض الأعراب . وينقل ابن خلكان أن قرعويه لما قتل ، لم يعلم بأمره أبو المعالى ، فلما بلغه الخبر شق عليه .

ونحن نرجح أن أبا فراس لم يقتل فى المعركة ، وأنه إنما أصيب فيها إصابة أودت بحياته ، بعد وقت قصير منها ، وها هو ذا بعد أن خسرها ، يرى أن المقدور لا سبيل إلى الفرار منه ، وأن إرادة الله لا قدرة لبشر على الوقوف فى وجهها ، فيقول :

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٢ .

إذا لم يعنك الله فيما تريده فليس لمخلوق إليه سبيل
وإن هو لم ينصرك لم تلق ناصرا وإن عز أنصار ، وجل قبيل
وإن هو لم يرشدك فى كل مسلك ضللت ، ولو أن السماك دليل

وينصت إلى ابنته وهى تبكى ، فينهاها عن الجزع حينا ، ثم يجد نفسه جديرا بالبكاء عليه ، لشبابه الذى لم يمتع به ، فيأمرها بالبكاء ، ويقول :

أبنيتى ، لا تجزعى كل الأنام إلى ذهاب
أبنيتى ، صبرا جميلا ، للجليل من المصاب
نوحى على بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولى ، إذا ناديتنى وعييت عن رد الجواب :
زين الشباب أبو فراس ، لم يمتع بالشباب

وأما أن سعد الدولة حزن حين سمع بوفاته ، فقد يكون صحيحاً لرابطة الدم التى تربطهما ، وقد يكون غرضه من قتاله لأبى فراس أن يأسره ، ويجعله إلى جانبه حتى يأمن شره ، ولكن قرعويه تعجل ، ليقتل أشد منافسيه خطرا .

متى قتل أبو فراس ؟ يروى ابن الأثير أنه قتل فى ربيع الآخر ، سنة سبع وخمسين وثلاثمائة ، ويروى ذلك ابن خلكان ، ويحدد يوم وفاته ، بيوم الأربعاء ، لثمان خلون من هذا الشهر . كما يروى عن ثابت بن سنان الصابىء فى تاريخه ، أنه قتل لليلتين خلتا من جمادى الأولى .

وقد رثاه أبو إسحق الصابئ ، بقصيدة لم أعثر عليها . وقال بعضهم مشيرا إلى مقتله فى صدد :

وعلمنى الصد من بعده عن النوم مصرعه فى « صدد »
فسقيا لها ، إذ حوت شخصه وبعدا لها ، حيث فيها ابتعد

كانت سن أبى فراس عندما قتل ، زهاء سبعة وثلاثين عاما ، فلم يتخط

الأربعين ، وذلك هو ما عليه مؤرخوه ، ولكننا نجد له قصيدة ، يفتخر فيها ويبدؤها بالغزل ، وفيها يقول :

وقوفك فى الديار عليك عار وقد رد الشباب المستعار

أبعد الأربعين محرمات تماد فى الصبابة ، واغترار ؟

مما قد يوحى بأنه تجاوز الأربعين ، وذلك مالا نراه ، ولا نوافق عليه ، بل نجزم بأنه لم يرد عمره ، ولم يتحدث عن سنه بهذا الرقم ، فهو غزل لم يرد به نفسه ، ولا سيما أن تلك القصيدة أنشأها — فيما يبدو — فى الفخر قبل أسره ، ولم يقل أحد إنه قد بلغ تلك السن ، فى ذلك التاريخ .